الأميرُ، يختارُ المستقبلَ

تجاوزت نورة عدةَ شجيراتٍ، ثم نظرت إلى الاثنين الذين تبعاها، وقالت: «لقد وصلنا».

تثاءبت دنيا وصاحت: «أخيرًا!».

وسارعت بالذهابِ لحيث وقفت نورة؛ حتى تلقي النظرةَ الأولى على قريةِ مشَّى -إحدى قرى ديمنتيا القريبة مِن الحدودِ-. أما ليون، فسارَ بوتيرتهِ المعتادةِ، وشردَ ذهنهُ بأفكارٍ عدةٍ سمحَ الطريقُ وهدوءهُ بأن تعودَ إليهِ.

- «سيدي الأمير... سيدي الأمير...».

أخذت نورة تكررُ النداءَ عدةَ مراتٍ حتى أجابَ ليون، وحينها قالت: «لقد وصلنا إلى قريةِ مَشَّى يا سيدي. السيدُ سامح ينتظرُ بإحدى البيوتِ هنا؛ فلا مجالَ ألا نَمُرَّ بطرقِ القريةِ؛ لذلك، أرجو أن تضعَ غطاءَ الرأسِ وتجذبَ أقلَّ كميةٍ ممكنةٍ مِن الانتباهِ إلينا. اتّباعي بخطى سريعةٍ يكفي».

أومأ ليون ووضعَ غطاءَ الرأسِ المُرْفَقِ بالعباءةِ، وخرجَ مِن وسطِ الأشجارِ يلحقُ الفتاتين. ومع تراجعِ الأغصانِ، ظهرَ سورٌ خشبيٌّ امتدَّ مِن أقصى اليمينِ إلى أقصى اليسارِ؛ فكسائرِ القرى على الحدودِ، كانت قريةُ مشَّى محميةً بسورٍ بسيطٍ لكن عالٍ. وأكملَ ليون الطريقَ وراءَ الفتاتين، حتى وصلَ إلى بوابةِ القريةِ، فوجدها غيرَ مراقبةٍ رغمَ حالةِ الحربِ، ومرَّ

بها ليصـــلَ إلى قلبِ القريةِ التي بدت مفعمةً بالحياةِ، معزولةً عما يحدثُ بالعالمِ بأسرهِ.

وراءَ الســورِ الخشــبيّ ظهرت عدةُ بيوتٍ رســمت شــكلَ القريةِ، كانت مِن الخشبِ كاملةً، بعضها لا يطلقُ عليهِ إلا كوخًا وضيعًا، وبعضها في جمالِ القصورِ بما نُحِتَ على خشبها. أما الطرقُ فكانت ترابيةً وضيقةً، ولمْ تسمحْ بمرورِ العرباتِ، فيما عدا الطريقِ الرئيسيّ.

وســارَ ليون ينظرُ لحظةً إلى ما حولهُ، وأخرى إلى نورة التي قادتهُ لحيث سيلقى سامح ياسين.

- «ما بكَ؟».

بعد أن شــردَ لحظةً، وجدَ ليون دنيا بجانبهِ تســألُ ســؤالها، فأجابَ: «أُفكِّرُ».

- «هذا نادرٌ».

ضحكَ ليون وسأل: «التفكيرُ؟».

- «لا، عادةً ما يجيبُ كلُّ مَن أســألهُ (ما بكَ؟) قائلًا (لا شــيء)؛ لذلك تفاجأتُ. في ماذا تفكِّرُ؟ هل هو أثرُ السجنِ؟ دائمًا ما أقولُ: (ألف سنة مِن الحربِ خيرٌ مِن سنةٍ واحدةٍ في السجنِ)».

-«لا».

- «إذن تفكِّرُ فيما ستفعلهُ مِن الآن؟».

مرَّ ليون بعدةِ أطفالٍ يلعبون بكرةٍ صغيرةٍ، فنظرَ إليهم وابتسمَ قليلًا قبل أن يجيبَ: «يفكِّرُ في المستقبلِ مَن يستطيعُ المضيَّ إلى الأمامِ،

أما أنا فأحِسُّ كأنما ما زلتُ في ذلك اليومِ، واقفًا في أكبرِ حجراتِ القصرِ، لا أعلمُ ما سيحدثُ لي أو لأختي...».

أومأت دنيا عدةَ مراتٍ كأنما تشـيرُ إليهِ بأنها تتفهمُ، ثم قالت: «شخَّصتُ مرضكَ».

-«مرضي؟».

- «أجل، إنهُ ذلكَ المرضُ الذي يهاجمُ عقلَ الإنسانِ قبلَ أن يبدأ العملَ تجاهَ تحقيقِ شيءٍ مُذهلٍ».

ضحكَ ليون ضحكةً قصيرةً ولكن مِن قلبهِ، وقالَ: «أتمنى ذلكَ».

رفعت دنيا يدها إلى صـدرها وقالت بثقةٍ: «اسـألْ عبقريةً ولا تسألْ طبيبًا!».

طرقت نورة بابَ أحدِ البيوتِ، ففُتِحَ، وخرجت فتاةٌ صغيرةٌ ذات شعرٍ أشقر وعينين زرقاوتين، مرتديةً فستانًا صغيرًا ومتجهةً نحو نورة. وتجهزت نورة لتحتضنها، ولكن... مرَّت الفتاةُ بها واستقرَّت في أحضانِ دنيا التي حملتها إلى أعلى.

- «ليس لي حظٌّ مع الأطفالِ...».

تنهدت نورة ودخلت، وتبعتها دنيا حاملةً الطفلةَ ذات الثمانية أعوام، وأخيرًا ليون.

- «أستاذة دنيا، مرحبًا بعودتكم. ستكونُ المقبِّلاتُ جاهزةً في دقائق».

كان بالداخلِ رجلٌ شـعرهُ أشـقر بنفسِ درجةِ لونِ شـعرِ البنتِ الصغيرةِ، وتلوَّنت عيناهُ بذات الزرقةِ. وقفَ بحجرةٍ صغيرةٍ كانت مطبخًا متصـلًا بغرفـةِ الاسـتقبالِ، وارتدى زيًّا يُظْهِرُ أنهُ لمْ يكنْ مجرَّدَ راع أو حطابٍ، وكانت على رأسهِ قبعة بيضاء تشبهُ قبعةَ الطاهي.

جلست نورة على أولِ كرسيٍّ قابلها، أما دنيا فدخلت حتى المطبخِ ووضعت الفتاةَ الصغيرةَ أرضًا.

تحدَّثَ الرجلُ دونَ أن يعلمَ بوجودِ ليون بعد: «أستاذة دنيا، هل سيتأخرُ ذلك الضيفُ الذي ذكرته سابقًا؟».

قبلَ أن تُجيبَ دنيا، قفزت الفتاةُ الصـغيرةُ وقالت: «اسـمها دُنْدُنْ! أعطني بعضَ الحلوى!».

- «هذه ليست حلوى يا سلمى، هذا طعامُ الضيوفِ».

-«أرجوكَ!».

- «حسنًا، القليلَ فقط».

أخذت الفتاةُ الطعامَ وهدأت قليلًا، فأتاحت الفرصـةَ لدنيا لتتحدثَ: «الضيفُ هنا».

نظرَ الرجلُ فرأى ليون الذي أزالَ غطاءَ رأسـهِ، فأنهى وضـعَ ما صنعَ مِن طعامٍ في طبقٍ سريعًا، وذهبَ مبتسمًا إلى ليون، فصافحهُ وقال: «أنا محمد، صـاحبُ هذا البيتِ. أرجو أن تكونَ دنيا قد أخبرتكَ أن هذا ليس نُزُلًا أو فندقًا، ومع ذلك، خذْ راحتكَ وتمتَّعْ بالإقامةِ في إطارِ ما يَسمحُ بهِ المكانُ».

أشـارَ محمد إلى ليون بأن يجلسَ حيثما شـاءَ، ثم عادَ إلى المطبخِ ورجعَ بعدَ دقيقةٍ حاملًا الطعامَ، قائلًا: «أرجو أن تتبعني؛ الأسـتاذُ سـامح ينتظركَ بالأعلى».

جاءت سـلمى الصـغيرةُ جريًا فوقفت عند رجلي محمد وصـاحت: «أبي، أبي! قطعةً أخرى!».

- «آخِر واحدةٍ».

أعطاها الأبُ قطعةً مِن المقبلاتِ والتي كانت نوعًا مِن المخبوزاتِ، ثم نظرَ إلى ليون وابتسـمَ قائلًا: «لا تَلُمْها؛ فأنا واثقٌ في مذاقِ طعامي. كما أنها ابنتي الوحيدة».

طرقَ محمد بابَ حجرةٍ بالدورِ العلويّ، ودخلَ يتبعهُ ليون. وكان باسـتقبالهما بالداخلِ رجلٌ سـمينٌ بعضَ الشـيءِ، صـاحبُ شـعرٍ أبيض مخفيّ تحتَ قبعةٍ مِن فراءٍ، وصاحبُ معطفٍ طويلٍ مِن الفراءِ -مِن النوعِ الذي لا يلبسـهُ إلا الأغنياءُ-. وبجانبهِ جلسـت فتاةٌ شـابةٌ صـاحبةُ شـعرٍ أزرق بلونِ السـماءِ، مصـبوغ ليكونَ علامةَ جمالٍ كما هي العادةُ في بعضِ أجزاءِ ألسـندا ومضـفَّرٍ في ضـفيرةٍ طويلةٍ تصـلُ إلى صـدرها مِن ناحيةِ كتفها الأيمنِ.

- «ليون! بني! لا وصْـفَ لفرحتي وأنـا أراكَ أمـامي! الحمـدُ للهِ! الحمدُ للهِ والشكرُ لهُ سبحانهُ!».

قامَ الرجلُ ذو الملابسِ الفرويةِ -سـامح ياسـين-، فأخذَ ليون بين يديهِ، واحتضـنهُ لسـعادتهِ الشـديدةِ بسـلامتهِ، ثم وقفَ يمسـكُ بكتفي ليون غيرَ مصدّقٍ وجودهُ أمامهُ.

وضعَ محمد الطعامَ على طاولةٍ صغيرةٍ، وقالَ: «اسمحا لي، إن احتجتما شيئًا أخبراني».

شكرهُ سامح، ثم خاطبَ الفتاةَ الجالسةَ: «لِيَا، اتركينا الآن».

جلسَ سامح ياسين أمامَ الطاولةِ التي وُضِعت عليها المقبلات، وجلسَ ليون أمامهُ مباشرةً، بحالهِ كما كانت، في صمتٍ تامٍ، وبدأت السحبُ تسيرُ في السماءِ لتسمحَ بضوءِ الشمسِ في الحجرةِ على فتراتٍ متقطعةٍ.

هدأت سعادةُ سامح قليلًا وقالَ: «كيف حالكَ يا بني؟ أرى أن الأيامَ السابقةَ أذهبت ابتسامتكَ المعتادةَ».

- «أنا بخيرٍ».

لمْ يُعجب الردُّ القصيرُ سامح، فنظرَ قليلًا إلى الشباكِ الصغيرِ المطلِّ على الطريقِ الرئيسيِّ للقريةِ، ثم عادَ ليتأملَ حالَ الفتى أمامهُ. لقد كان يعرفهُ منذ أن وُلِدَ؛ فعملهُ كوالٍ لإركلًا -أحدَ أكبرِ ولاياتِ السندا- جعلهُ يترددُ كثيرًا على القصرِ الملكيّ. وحتى بغضِّ النظرِ عن طبيعةِ عملهِ، كان سامح صديقًا يترددُ لزيارةِ الملكِ الصالحِ، الذي عرفهُ وصادقهُ منذ الطفولةِ. وفي كلِّ زياراتهِ، رأى وجهًا آخرَ لليون، وجهًا لمْ يكنْ بهِ مِثلُ هذا الحزنِ إلا عند موتِ الملكةِ، وكان هذا الحدثُ المؤسفُ قديمًا نسبيًا، فسمحَ الوقتُ بأن ينسى سامح وجهَ ليون الحزين، وبأن تصيرَ البسمةُ هي الغالبة ثانيةً... والآن، عادَ الحزنُ.

- «ليون، بني...».

بدأ سامح يتحدثُ: «هذه الأحداثُ مأساويةٌ. قد لا تكونُ الأخيرةَ مِن نوعها -لا أريدُ أن أضحكَ عليكَ-، ولكن الوقتَ لا يتوقفُ؛ لذلكَ على الإنسانِ أن يسيرَ».

أجابَ ليون: «لا أريدُ سماعَ هذه الكلماتِ، أخبرني بما حدثَ... منذ سقوطِ العاصمةِ».

خضعَ سامح لإرادةِ ليون، فبدأ يروي ما حدثَ بلا تحفُّظٍ:

- «بعدَ سقوطِ العاصمةِ، أعلنَ ابن الإمبراطورِ أن ألسندا صارت الدولةَ السادسةَ التابعةَ لديمنتيا والحلفِ الخماسيِّ، وألغى الملكيةَ ووضعَ أخاهُ الأصغرَ حاكمًا، وبالتأكُّدِ مِن مقتلِ الملكِ الصالحِ في الحربِ، فقدَ الجنودُ معنوياتهم، وسقطت المقاومةُ في العاصمةِ وفي المناطقِ حولها، ووضعَ جيشُ ديمنتيا قبضتهُ على كلِّ الحصونِ والمواقعِ في المنطقةِ... الموقفُ شديدُ السوءِ... لا يبقى مِن المقاومةِ إلا فرقٌ مختلفةٌ فيما بينها، وانسحبت جميعها إلى الغاباتِ، الجبالِ، أو الأريافِ».

- «وأختي؟».

- «الأميرة نادين...».

- «أخبرني الحقيقةَ...».

- «الحقيقة... سيقامُ زفافها لحاكمِ ألسندا الجديدِ في الأيامِ القادمةِ... يرغمونها على ذلكَ ليحصلوا على موقفٍ أكثرَ صلابة، وربما على تأييدِ بعضِ الأغبياءِ ممن يسهلُ التأثيرُ فيهم».

ظهرَ الارتعادُ على وجهِ ليون لحظةً، قبل أن يتمالكَ نفسهُ أمامَ ما سمعَ.

قال سامح: «الموقفُ شديدُ السوءِ... ولكنهُ لا يسمحُ باليأسِ، مِن الآن يمكنكَ أن تقررَ: هل ستهربُ لتعيشَ لاجئًا، أم ستحاربُ معي؟ مِن مكاني كوالٍ على إركلَّا لا أستطيعُ إعلان معاداتي لديمنتيا؛ فتحتَ الضغوطِ أنا مُلزمٌ بالولاءِ للحاكمِ الجديدِ، ولكن هذا لا يمنعُ أن أساعدَ المقاومةَ مِن الخفاءِ... (الخناجرُ التسعةُ) هذا اسمُ حركةِ المقاومةِ التي بدأتها، والتي أريدكَ أن تقودها؛ كالأميرِ والوريثِ الشرعيِّ للعرشِ يمكنكَ أن توحِّدَ الصفوفَ، وتجمعَ الكثيرين تحت رايتكَ. بنجاتكَ مِن الموتِ، لمْ ينجُ (ليون) وحدهُ، بل نجا اسمُ ومكانةُ ألسندا معهُ، فلماذا لا تقفُ بصفِّنا؟ لنحاربَ جميعًا كألسنديين لا يخشون موتًا في الحربِ».

ظلَّ ليون صامتًا، فسارعَ سامحُ بالإضافةِ: «أنا آسف! لا تأخذ القرارَ الآن؛ حتى أنا لن أستطيعَ أخْذَ مِثلهِ في لحظةٍ... القراراتُ تأخذُ بعدَ تفكيرٍ طويلٍ. أنا أكثرُ الناسِ درايةً بحزنكَ لعدمِ قدرتكَ على خوضِ هذه الحربِ، ولكني أيضًا أعلمُ أن ما رأيتَ في الأيامِ السابقةِ ليس بالهيِّنِ؛ لذلك، خذْ وقتكَ... إن أردتَ اللجوءَ السياسيَّ، سأوفرُ لكَ الملجأ المناسبَ في دولةٍ محايدةٍ، وإن أردتَ الحربَ سأساندكَ إلى آخِرِ نفسٍ في حياتي. غيِّرْ ملابسكَ، وارتحْ قليلًا، ثم أسمعني إجابتكَ... هل بعد الغداءِ موعدٌ مناسبٌ؟».

-«أجل».

- «نصيحة مني، بني، لا تكنْ عاطفيًّا في قرارِكَ؛ قد لا نستطيعُ إنقاذَ الأميرةِ، قد نعودُ إلى ألسندا فقط لنموت... ليس بالحربِ أبطالٌ، فقط ضحايا، ولكن، (أن ترفعَ سيفًا لتدفعَ الظلمَ عن مَن تحبُّ) هذا ما يُدعى السموَّ والنُّبْلَ».

نزلَ ليون إلى الطابقِ الأولِ ليجدَ دنيا مبوّزةً في ناحيةٍ، وليا -التي لمْ يتعرفْ عليها بعد- في الناحيةِ الأخرى تمسكُ دميةً خشبيةً صغيرةً، وتعملُ على ربطِ بعضِ الخيوطِ بها.

- «هل مِن خطبٍ ما؟».

جلسَ ليون على أحدِ الكراسيّ الخشبيةِ في الوسطِ وأخذَ يجففُ شعرهُ بفوطةٍ صغيرةٍ. لمْ تنظرْ إليهِ دنيا، وإنما أجابت، وهي ما زالت تعبّرُ عن استيائها: «خرَجَت نورة، وخرجَ محمد، والبنتُ الصغيرةُ نائمةٌ... تركوني جميعًا *معها*...».

كانت تقصدُ لِيَا -الفتاةَ الأخرى-.

- «وهذهِ مشكلةٌ؟».

التفَّت دنيا وقالت: «استمع»، ثم نظرت إلى ليون لحظةً في صمتٍ، ثم قالت: «مَن أنتَ؟».

- «ما هذا السؤالُ؟».

استغربَ ليون السؤالَ، ولكن الحقيقة أن شكلهُ اختلفَ كثيرًا عن ذي قبل؛ فالآن ارتدى ملابسَ جديدةً تمثلت في بنطالٍ أسود وقميصٍ رماديّ، وحتى شَعرهُ اختلفَ بعدَ أن غسلهُ ومشَّطهُ. بشكلهِ الجديدِ، نظرَ إليها متسائلًا لحظةً، ثم التفتَ إلى صاحبةِ الشعرِ الأزرقِ، التي دامت على وجهها تقطيبةُ حزنٍ لمْ يعلمْ لها سببًا.

وجَّهَ ليون إليها الكلامَ: «أا... اسمُكِ لِيَا، أليس كذلك؟».

أومأت الفتاةُ في صـــمتٍ دون أن تلتفتَ، فأكملَ ليون حديثهُ موجهًا لهُ نحوَ دنيا هذه المرةَ: «هل هي صديقتكِ؟».

- «صديقتي؟! ما الذي تقولهُ؟! احمد اللهَ أني وافقتُ على الخروجِ في المهمةِ وأنا أعلمُ أنها سترافقنا».

جاءَ صوتُ لِيَا: «الشعورُ متبادلٌ».

ســمعَ ليون صــوتَ البابِ يفتحُ ويغلقُ؛ دخلت نورة، فوضــعت حقيبةً صغيرةً عند البابِ، ثم سألت: «أينَ أصحابُ البيتِ؟».

فأجابت دنيا: «محمد خرجَ منذ فترةٍ، وســلمى نائمةٌ أو تلعبُ بالأعلى».

فقالت نورة: «لا تُعجبني الحالُ في القريةِ؛ الوضعُ هادئٌ أكثرَ مما يجبُ... لمْ أتفقد السوقَ أو أنحاءهُ بعد، ولكن مما رأيتُ، إلى الآن لمْ يأتِ جنديٌّ واحدٌ ليسألَ أهلَ القريةِ عنا...».

قالت دنيا: «ألا يعني ذلكَ أن الخطةَ نجحت؟».

لمْ يُحب ليون موقفهُ كمستمع لا يدري الكثيرَ عما يقالُ، فسألَ: «وما تفاصيلُ الخطةِ؟».

أجابت دنيا: «الخطةُ البديلةُ: إن لمْ نستطعْ عبورَ الحدودِ بالسرعةِ القصوى، نحضُرُ إلى هذه القريةِ؛ ليست مباشرةً على الطريقِ إلى الحدودِ، وبذلك لا يشكُّ العدوُّ بأننا هنا. وبعدَ هدوءِ الأوضاعِ، ننطلقُ مِن هنا لنعبُرَ الحدودَ، عائدين إلى ألسندا دونَ قتالٍ. نسبةُ النجاحِ ١٠٠ بالمائة!».

قالت لِيا: «لستُ مطمئنةً».

صـــاحت دنيا: «لا تبالِ بما تقولُ! بقدرِ قلةِ كلامها، إذا تحدَّثت يكونُ مُزعجًا هكذا!».

عادت نورة لتقولَ: «أوافقُ لِيَا... ما زلتُ قلقةً».

نظرَ ليون إلى ثلاث الفتياتِ -دنيا ونورة ولِيَا-، منقذاته، وتذكَّر قليلًا مِن الحلمِ الذي رآهُ بزنزانةِ الحصـــنِ، تشـــابه أولُ الحلمِ بما حدثَ الآن... وتشـــابهت ثلاث الفتياتِ اللاتي رآهن بالحلم بثلاث الفتياتِ اللاتي رآهن الآن. مع هذا الشعورِ بدأ يتساءلُ:

- *«هل ســـيغير شـــيئًا تفكيري في الحلمِ؟ في القدرِ؟ هل ســـيغير قراري؟ قراري... على ماذا أبنيهِ؟»*.

فُتِحَ بابُ البيتِ، ودخلَ صـاحب البيتِ محمد مسـرعًا، مقاطعًا الحديثَ بالداخلِ ومقاطعًا تساؤلاتِ ليون، قائلًا: «أنا آسف على تأخري، سأبدأ في تحضيرِ الغداءِ حالًا!».

تعثَّرَ الرجلُ وســقطَ، فأســرعت دنيا لتســاعدهُ ومعها ليون ليلتقطَ الأشياءَ المتساقطةَ.

- «وجهكَ شاحبٌ يا محمد، هل أنتَ بخيرٍ؟».

تمـالـكَ محمـد نفســـهُ، ووقفَ ســـريعًـا، مجيبًـا: «بخيرٍ، بخيرٍ والحمدُ لله».

أعطى ليون محمد ما أوقعَ، ثم نظر إليهِ لحظةً، قبلَ أن يُســـرِعَ محمـد إلى المطبخِ، وهو يعيـدُ القولَ: «بخيرٍ والحمـدُ لله، لا تقلقوا؛ أنـا فقط أخافُ أن يستاءَ الأستاذُ سامح مِن إهمالي».

ضـحكت دنيا وقالت: «لا تقلق! كنتَ تبتاعُ الطعامَ لتحضِّـرَ الوجبةَ، كما أنهُ لا يمكنُ لمَن يتذوقُ طبخكَ أن يستاءَ!».

- «حرامٌ أن ننتظرَ هكذا! لماذا يقدِّمُ لهما الطعامَ أولًا؟!».

تذمَّرت دنيا بينما صـعدَ محمد السـلمَ ليقدِّم الغداء لليون وسامح، الذين جلسا بغرفةِ الأخيرِ يتحدثان قليلًا.

-«تفضَّل».

بإذنِ سـامح، دخلَ محمد إلى الغرفةِ حاملًا الطعامَ، ووراءهُ جاءَ ضيفٌ لمْ يتوقعهُ: أسرعت سلمى الصغيرةُ -بنتهُ- في عقبهِ، فأوقفتهُ بعد أن وضعَ أول طبقٍ أمامَ الاثنين، وأخذت تكررُ: «أبي! إني جائعةٌ!».

همسَ محمد: «هذا الطعامُ للضيوفِ، انتظري».

- «لا! أريدُ قطعةَ حلوى واحدةً على الأقلِّ!».

تركت البنتُ والدها، وتوجهت إلى سـامح: «أسـتاذ سـامح، هل يمكن أن آخذَ قطعةَ حلوى؟».

وأشارت إلى قطعةٍ مِن مخبوزاتٍ قدَّمها والدها.

ابتسـمَ سـامح، ومدَّ يدهُ إليها بواحدةٍ قائلًا: «لا مشـكلة يا محمد. تفضلي يا صغيرة».

ولكن محمد أخذَ القطعةَ منها بسرعةٍ وصاحَ بها: «قلتُ لا!».

فبدأت الفتاةُ تبكي، وبسرعةٍ تركت الغرفةَ.

تعجبَ سامح وقال: «محمد، إنها طفلة...».

- «سأصالحها في وقتٍ لاحقٍ يا سيدي».

وضعَ محمد الطبقَ الآخرَ أمامَ ليون، والتفتَ للانصرافِ، ولكن ليون أشارَ إلى سامح بألا يأكلَ، وسارعَ بالقولِ: «أستاذ محمد، لماذا لا تتفضل أنتَ وبنتكَ لتشاركنا هذه الوجبةَ؟».

التفتَ محمد وقال: «أشكرُ عرضكَ يا سيدي، ولكن لا يمكننا».

قال ليون: «لن تخدعَ أحدًا بتمثيلكَ هذا».

- «ما قصدُكَ يا سيدي؟».

- «حتى وإن لمْ تفْضحكَ بنتكَ لعرفنا؛ تمتلكُ ما يقالُ عليهِ (وجهٌ لا يكذبُ) ... لا تستطيعُ أن تضعَ السمَّ لأحدٍ وتبتسمَ دون اضطرابٍ أو شعورٍ بالذنبِ».

قامَ سامح مِن كرسيهِ، وصاحَ: «سمٌّ؟!».

بلا أيّ انكارٍ أو مقاومةٍ، أو حتى محاولةٍ للهربِ، نزل صاحبُ البيتِ محمد إلى ركبتيهِ وظهرَ ارتياحٌ كبيرٌ على وجههِ، قبلَ أن يقولَ: «الحمد لله الذي لمْ يجعل مني قاتلًا».

وابتسمَ قليلًا، كمَن فقدَ الأملَ في النجاةِ.

- «ما مدى علمكَ بما يحدثُ؟ بمَن نحن؟».

- «لا أعلمُ ما يحدثُ هنا، ولا أعلمُ مَن أنتم بالضبطِ. كما قلتُ للسيدِ سامح مِن قبل: لقد وافقتُ على بقائكم هنا لأني أحتاجُ بعضَ المالِ... إن أعطيتني الفرصةَ سأخبركما بكل ما حدثَ».

هدأ سامح وقال: «تكلَّمْ».

- «أرجو أن تستمعَ إلى كلِّ ما عندي، وأرجوكَ، لا تُسِئ الظنَّ بي، حتى مع ما اقترفتُ. ذهبتُ إلى السوقِ لأبتاعَ ما نقصني مِن مكوناتٍ لتحضيرِ الغداءِ، وإذا بمجموعةٍ يرأسها شيخُ القريةِ تأخذني وتقودني خارجَ القريةِ إلى معسكرٍ صغيرٍ نصبهُ جنودٌ. أدخلوني إلى الخيمةِ الرئيسيةِ، ووضعوني أمامَ رجلٍ ضخمٍ أخبرني بأني آوي مجرمين في بيتي، وبأني قُبِضَ عليَّ لتعاوني معهم. بالطبعِ أنكرتُ استضافتي لأحدٍ... ثم مع تهديداتِ الشيخِ، أنكرتُ معرفتي بأنكم مجرمون، ولكنهم لمْ يصدِّقوا... ثم تحدَّث الرجلُ قائدهم ثانيةً، تجاهلَ كلَّ ما قيلَ، وأمرني أن أتعاونَ معهم إن أردتُ الحفاظَ على حياتي وحياةِ بنتي؛ فأعطاني سُمًّا، وطلبَ مني أن أضعهُ لكم - (ابتداءً بالشابِّ)، على حسبِ تعبيرِهِ-».

قبل أن ينطقَ سامح ثانيةً، تحدثَ ليون: «وأين المعسكرُ الذي ذكرتهُ؟».

- «في شرقِ القريةِ، وسطَ أشجارِ الغابةِ».

بسماعِ الإجابةِ، وجَّهَ ليون كلامهُ إلى سامح: «قلتَ إن لديكَ عربات جاهزة...».

قال سامح: «أجل، اثنتان -عربتنا وعربة لِيَا-، إنهما الاثنتان اللتان رأيتَهما بالقربِ مِن البابِ».

قاطعَ محمد: «اسمحا لي، البيتُ مراقبٌ، وهناك على الأقلِّ قناصٌ واحدٌ على البيتِ المقابلِ، ينتظرُ أن تخرجوا مِن البيتِ لتصطادكم سهامهُ إن فشلتُ أنا؛ فتكفيرًا عن خطأي، يمكنني أن أدلَّكم على طريقٍ خلفيٍّ... مدخلٍ استعملهُ لنقلِ الحطبِ إلى القبوِ».

فكَّرَ ليون لحظةً، كان محمد تحت يديهِ؛ فلمْ يكنْ هناك سببٌ ليكذِّبَ قولهُ، خاصةً أنهُ كشفَ هذا الخطرَ المحتملَ بمحضِ إرادتهِ، ولكن، كانت للموقفِ عواملٌ عدةٌ -مزايا وعيوبًا- يجبُ أن يتخذها في الحسبانِ قبلَ أن يوافقَ أو يَرْفُضَ أيَّ اقتراح.

عادَ محمد يقولُ: «سيدي، يقولُ جنودُ ديمنتيا أنكم مجرمون، ولكني لا أصدقهم؛ في هذه الأنحاءِ يستخدمون سلطتهم في ظلمِ الناسِ، وسأتعرضُ أنا وبنتي لهذا الظلمِ إذا ظللتُ بهذا المكانِ... أرجوكما، صدِّقاني وخذاني معكما بعيدًا عن هنا، فقط إلى الأمانِ، ثم لن تريا وجهي ثانيةً. أريدُ إنقاذَ بنتي، لا أهتمُّ بغيرها في هذه الدنيا».

ثارَ سامح: «يا لكَ مِن وقح! تضعُ السمَّ لنا، ثم تطلبُ النجدةَ!».

أشارَ ليون إلى سامح بأن يهدأ، ثم قال: «كما تقولُ بالضبطِ يا محمد، أنتَ وبنتكَ الآن مقحمان، فيما يحدثُ وما سيحدثُ سواءً؛ لذلكَ لا تتعجلْ، اختر الفرقةَ التي ستضمنُ حياتكَ وحياةَ بنتكَ حقًا. إن أردتَ اللجوءَ للجنودِ ضدنا، فلن أمنعكَ. وإن أردتَ مساعدتنا، فسأساعدكَ».

ذُهِلَ سامح وقالَ: «ما الذي تقولهُ؟!».

رفعَ محمد رأسهُ وقالَ: «سبقَ أن أخذتُ القرارَ يا سيدي—أنا معكم».

قامَ ليون، ومدَّ يدهُ إلى محمد فأوقفهُ على قدميهِ، وقال: «إذًا، أخبرْ نورة والاثنتين بكلِّ ما حكتهُ لي، ثم خذْ بنتكَ وانتظرا نزولنا».

أومأ محمد وتركَ الغرفةَ، غالقًا بابها وراءهُ.

تنهدَ سامح وقال: «أنتَ لا تفكِّرُ!».

عادَ ليون إلى كرسيهِ، وسألَ: «لماذا تقولُ ذلكَ؟».

- «يجبُ أن تعرفَ ما قد يسببهُ قرارُكَ هذا... قد يصبحُ خنجرًا في ظهرِكَ».

- «لقد رأيتَهُ يا سامح، ليس كما تظن».

- «جميعهم هكذا: يتظاهرون بالضعفِ ويخفون الخيانةَ».

هزَّ ليون رأسهُ نافيًا، ثم قال: «التعميماتُ كثيرًا ما تكونُ خاطئةً؛ هناكَ دائمًا مَن يخرقُ القاعدةَ. الأهمُّ الآن أني أخذتُ القرارَ: لن أهربَ يا سامح، سأحاربُ».

- «هل تعني أمامَ الجنودِ الآن؟».

- «لا، أعني الآن وبعدَ ذلكَ؛ لن ألجأ، سأحاربُ على أرضِ ألسندا، لأجلها».

أشرقَ وجهُ سامح، وبدا كأنهُ قد نسيَ كلَّ ما حدثَ سابقًا، فقامَ مِن كرسيهِ سريعًا، واتجهَ إلى خزانةٍ صغيرةٍ، أخرجَ مِنها صندوقًا أسود متوسطَ الحجمِ، وعادَ بهِ ليضعهُ على الطاولةِ بعدَ إزالةِ الطعامِ.

- «لن تغيِّرَ رأيكَ؟ لا عودة...».

- «لن أغيرهُ».

فتحَ سامح الصندوقَ، ثم تركهُ لحظةً وقالَ: «بني، ليون، لماذا شنَّت ديمنتيا الحربَ على ألسندا؟ الآن... في هذا التوقيتِ؟ لمْ يذكروا

سببًا، ولكن بعضَ أهلِ ألسندا يقولون إن الهجومَ جاءَ بسببِ سياسةِ الملكِ المعاديةِ لديمنتيا، وذلكَ غيرُ صحيح. السببُ الحقيقيُّ أن الملكَ الصالح أرادَ ألسندا أن تصبحَ قويةً: السببُ الحقيقيُّ في هذا الصندوقِ، وفي يدِ الخناجر التسعة».

ألقى ليون نظرةً قصيرة على ما كان داخل الصندوقِ.

أكملَ سامح: «ما سأخبركَ بهِ هو سرٌّ حفظتهُ أنا ووالدكَ، وفضحهُ الخونةُ والجواسيسُ للأعداءِ، فأتت الحربُ. منذ صغرنا، حلمتُ أنا ووالدكَ بتغييرِ ألسندا كلها. جدكَ لمْ يكنْ ملكًا سيئًا، ولكن بنهايةِ عهدهِ، صارت ألسندا بلدًا ضعيفًا يتخللهُ الظلمُ والفسادُ، بلدًا لا يستطيعُ أن يقفَ وحدهُ، بل يحتاجُ مَن يطمعهُ ويدافعُ عنهُ -رضيعًا إن شئتَ التشبيهَ-. وفي الوقتِ الذي كان على الألسنديين العمل والإنتاج، ازدادوا في الاعتمادِ على غيرهم مِن الدولِ. وفي الوقتِ الذي ازدادت فيهِ تلكَ المشاكلُ وظهرت أشباحُ الدمارِ، صعدَ والدُكَ إلى الحكمِ، وقررَ أن على ألسندا أن تتقدمَ وأن تصبحَ قوةً بهذا العالمِ. كان يقولُ: (كيف نعتمدُ على ديمنتيا؟ كيف نعطيها مواردنا مقابل الحمايةِ؟ إنَّ هذا هو الذلُّ، الذلُّ الذي بيدي سأغيرهُ الآن -حتى وإن رفضَ كلُّ العالمِ- بجهدِ كلِّ ألسنديّ!). بدأ الصالح يحاربُ الفسادَ، وبدأت أساندهُ بكلِّ ما أملكُ، حتى تحسَّنت الحالُ قليلًا...».

صمتَ سامح قليلًا، كأنما الجزءُ القادمُ صعبٌ عليهِ حكايتهُ، ثم قال: «ولكن والدكَ أخذ قرارًا صعبًا... قررَ أن ألسندا لن تصدِّرَ الجيماتَيْتَ إلى ديمنتيا، واتفقَ معي على إنشاءِ مؤسسةٍ سريةٍ للبحثِ والتطويرِ، حتى تستغلَّ ألسندا ما تنتجهُ مناجمها مِن المادةِ. وكان الغرضُ الأولُ مِن هذه المؤسسةِ أن تخترعَ أسلحةً متطورةً باستخدامِ

الجيماتَيْتِ -المادةَ نفسها التي جعلت أسلحةَ ديمنتيا أقوى أسلحةٍ في العالمِ-. ثم جاءت الحربُ. خوفًا مِن أن تصبحَ ألسندا قوةً عالميةً. قبل أن يتمَّ تصنيعُ الأسلحةِ، كشفَ جواسيسُ ديمنتيا خطةَ الملكِ، وشنَّت ديمنتيا هجومها الشاملَ على ألسندا... وأنتَ تعلمُ الباقي...».

لمْ يُعلِّقْ ليون، فأدارَ سامح الصندوقَ الأسودَ، وقرَّبهُ مِن ليون، قائلًا: «ولكني أنقذتُ الكثيرَ قبل أن يُدمَّرَ مبنى المؤسسةِ وتُسرقَ المعاملُ: مع نورة قوسٌ مقوًّى بالجيماتَيتِ، يستطيعُ قنْصَ أيِّ كائنٍ حيٍّ مِن أبعادٍ خرافيةٍ. مع ليا خيوطٌ مطليةٌ بالجيماتَيْتِ، تستطيعُ أن تُعطي للدمى الحياةَ وتحركها بحريةٍ كاملةٍ، كالجنودِ. ومع قادةِ (التسعة خناجر) أسلحةٌ أخرى... الجيماتَيْتُ مادةٌ غريبةٌ، لمْ يستطع العلمُ تفسيرَ خصائصها أو تأثيراتها كلها، ومع كلِّ تجربةٍ تُظهرُ استخدامًا جديدًا؛ لذلكَ وجبَ أن نستخدمها لصالحنا الآن... وأهمُّ ما عثرنا عليهِ هو ما تراهُ أمامكَ... ما تراهُ هو ما سيصنعُ سلاحَ القائدِ -سلاحكَ- يا ليون...».

بعدَ صمتهِ الطويلِ، ابتسمَ ليون وقال: «لماذا لا نضعُ كلَّ هذا تحتَ التجربةِ الآن؟».

-«الآن؟».

- «أجل، على الأقلِّ ما يُمكنُ تجربتهُ؛ أليس هناكَ رجلٌ يريدُ العودةَ برأسي إلى الإمبراطور؟».

- «قاسم الجرَّاح...».

- «أجل، في الحقيقةِ، أنا أيضًـا بدأتُ أتمنى أن أعودَ برأسـهِ إلى ألسـندا، ويبدو أن الله يعطي الفرصـةَ لينجحَ أحدنا في تحقيقِ مرادهِ، ألا تظنُّ ذلكَ أيضًا؟».

نزلَ ليون السلالم سريعًا، وخلفهُ سامح.

- «دنيا، جهّزي كراتكِ السوداء».

- «أخيرًا سنبدأ!».

كان الكلُّ مجتمعًا في حجرةِ الاسـتقبالِ، وتجهَّزَ ليون ليخبرَ كلَّ فردٍ ما عليهِ فعلهُ بالضبطِ، ولكن محمد لمْ ينتظرْ بدئ كلامِ ليون؛ ترددَ لحظةً، ثم نادى:

- «سيدي ليون».

نظرَ ليون إلى وجههِ المملوءِ بالأسفِ، وسألَ: «ما الأمرُ؟».

- «في الحقيقةِ، هناكَ أمرٌ آخر أتمنَّى أن تأخذهُ في الحسـبانِ... هو طلبٌ، قد يكونُ صعبًا، ولا أُلزِمكَ بتلبيتهِ؛ فقط أرجوكَ...».

الحلفُ الخماسيُّ ١٣٥٠ ن.م.

بعدَ مائة سنة مِن الحربِ مع أربعةِ جيرانها، استطاعت مملكةُ جَسِنْما أن تُخضعَ جميعَ أعدائها لسيطرتها، وبمقتضى وثيقةِ الحلفِ الخماسيّ، أصبحَ الملكُ جاسر الأول إمبراطورًا، ووُلِدت إمبراطوريةُ ديمنتيا لتضُمَّ جَسِنْما وجيرانها كلهم. وهكذا، تشكَّلت أجددُ و -ربما- أقوى دولِ العالمِ عام ١٣٥٠ من النتيجةِ المقدسةِ. واليومَ، تحُدُّ إمبراطويةُ ديمنتيا مملكةَ ألسندا مِن الغربِ والشمالِ الغربيّ.

الجِيمَاتَيْتُ

رغمَ أنهُ ظهرَ في الأساطيرِ وعرفهُ القدماءُ، لمْ يعُد الجيماتَيْتُ ليظهرَ بالساحةِ العالميةِ إلا في سنةِ ١٣٧٥ ن.م.، عندما موَّلَ الإمبراطورُ جاسر الأول أعمالَ التنقيبِ والبحثَ العلميَّ في استخداماتِ الجيماتَيْتِ. رغم أنهُ حيَّرَ العلماءَ وجعلَ بعضهم يصدقُ خرافاتٍ تقولُ أن لهُ علاقة بالروح، يظلُّ الجيماتيْتُ مِن أهم مواردِ العالمِ: استخدامهُ الأساسيُّ في صنعِ الأسلحةِ، وأكبرُ مناجمهِ في جنوبِ ألسندا.